ثلاث مرات لساهي...

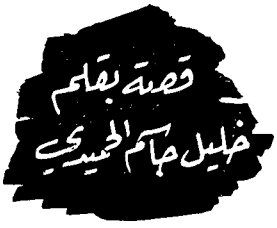

١ ــ شموس صغيرة للبعد المتعب .

الليل يرتمي فوق الاشياء ..
حول الاشياء ، بين الاشياء ... يغطيهـــا ... يلونها بالسواد والعتمة ، يدفنها بصمت اخرس الصوت والحركة .

وعيناي تزحفان فوق جسد المرأة العاري والممـــدد امامي بطريقة رخامية مثيرة ومغرية ، بينما يدي تمر من فوق مكامن الاثارة المزروعـة فيه بخشوع ... وشهوة مرتجفة .

ــ بماذا تفكر ؟
ــ جسدك ليس ناعما كما كان .

ارتجف جسد المرأة مثل حمامـة بللها المطر ، وارتمت يدها فوق يدي ، بحنان محرور المتعب ، في حين امتد صوتها في الغرفة الغارقة باللون الاحمر خيطا من نغم محزون .

ــ يدك هي الخشنة .
ــ منذ متى لم تستحمي ؟
ــ منذ ان رحلت .
ــ اذن ماذا كنت تفعلين ؟
ــ أتلصص من شقوق الابواب والنوافذ على مخادع الجيران .
وبعد ذلك ؟
ــ أرقص امام المرآة عارية وأنا أنتحب .
ــ وتفكرين بخيانتي ، مع رجل مهنته غير الحرب ، أليس كذلك ؟

بكت المرأة ، أدارت وجهها نحو الجدار ، أعطتني ظهرها ، ظهرها أبيض ، والليل خارج الغرفـــة بلون الفحم ، وخيم الصمت فوقنـا بشراهـــة .

انتظرت ان تقول شيئا .
ترد التهمة ... توافق عليها ، ولكنها بقيت صامتة .

جيدها من الخلف يثير فيّ مشاعر كثيرة وغريبة ، أهرب منها ، تطاردني ، تستولي عليّ ، تنغل في داخلي كالصئبان ، ترميني بذكريات أخاف منها ولا أريدها .

ــ ما كان يجب ان تكوني عارية .
ــ ليست لديّ ثياب جديدة .
ــ لحمك والنور الاحمر مسفوح فوقه يخيفني .
ــ ما زلت تعيش في الحرب .
ــ بل ظل الحرب هو الذي يطاردني .
ــ الحرب انتهت .
ــ بالنسبة للضعفاء .
ــ أنت تهذي .

ودمعت عيناي في الظلمة ، وازهر وجهك يا « ساهي » تغمـره فرحة طفل ، وابتسامة نبي .

ــ يجب ان نقاتل .
ــ نفدت ذخيرتنا .
ــ ولكن بقي الايمان والارادة .
ــ أنت جريح .
ــ انها الحرب ، وهم أرادوها .

ثم نظر الى السماء ، رفع مدفعه الصغير باتجاه عربة مصفحة كانت تتقدم نحونا ، ضغط على الزناد بكل ما يملك من قوة ، وامتلأ المكان برائحة البارود ، والغبار ، والموت .

ــ طلقة موفقة .

ابتسمت له في تعب ، بينما أجهش هو فـــي بكاء مر ، المرأة تشدني نحوها ، في عينيها نداء مفضوح لجوع ذابح ، لا تملك القدرة على اسكاته ، وأنا فقدت القدرة على التركيز في تفكيري او تصرفاتي.

ــ لنتابع المسير .
ــ تعبت .
ــ الطيران يملأ السماء .
ــ لقد نزفت دما كثيرا .
ــ يجب ان نصل .
ــ دعني وحدي .

عيناه العالقتان بي تمنعاني من فعل ذلك ، استند عليّ ، أراد ان يقول شيئا ، فتح فمه ، ولكنه انهار مثل جـــدار هرم ، انحنيت فوقه ، كانت اسنانه وعيونه واصابعه تعض الارض ، تنغرس فيها ، تعانقها بحب مجنون ، ومن فمه سال خيط من الدم الاحمر ، وعـلى الوجه بزغت شموس صغيرة وكثيرة تنور لابعاد متعبة .

وامشي ... الجثث تملأ الارض ، كـــل الجثث « لساهي » ، أتعثر بها ، أقع ... خيط الدم يكبر ... يصبح نهرا ، يلون كـل

الابعاد ، جسد المرأة ، شعرها ، فراشها ، حزنها ، يصبغ الغرفة والجدران والستائر .

المرأة تتحرك ... تستدير نحوي ، تمد يدها الى صدري ، تتحسسه بطريقة بارعة ... واشعر ان اصابعها آلاف من الجدران المعدنية تنهار في داخلي ... فتغرقني بالالم ... والتمزق ... والعذاب لتعطيل حواسي ... ترمي اعضائي بالاعياء والشلل ، تملأ المكان قيحا وصديدا ... وجثثا نتنة تبحث عن اكفان في العراء .

ـ تعال .
ـ لا استطيع .
ـ ولكني عطرت لك جسدي .
ـ قلت لك لا استطيع .
ـ وانتظرت عاما كاملا ولم آخنك .
ـ ليست لديّ رغبة .
ـ ولكني اريد ... اريد .

قالتها وكأنها تبكي بتوسل ، انفلت من حضن الغرفة مثل مهر خائف ، بينما كان يطاردني وجه « ساهي » ، ونحيب المرأة الممددة باغراء وشهوة .

* * *

٢ ـ « حوارية »

ـ ضبطت تحمل خنجرا مشحوذا .
ـ لاقتل به العصافير الملونة .
ـ وتتسكع بجوار منزل حاكم المدينة .
ـ كنت ابحث عن أمي .
ـ كنت تحاول اغتيال الحاكم .
ـ ولكن الحاكم وجدوه ميتا في حضن عاهر ، ليس في صدرها أثداء ، ولها من العمر سبع سنوات .
ـ اذن ماذا كان في صدرها ؟
ـ صورة زيتية لامي .
ـ وهل أمك عاهر ؟
ـ منذ اليوم الذي اشتهاها والدي وتعرت فيه امامه .
ـ من يحكم المدينة اذن ؟
ـ الخوف .
ـ وممن الخوف ؟
ـ من الحرب .
ـ وما الداعي لها ؟
ـ أشجار المدينة ترفض ان تكون عواهر .
ـ ماذا تريد ان تكون ؟
ـ اقلاما يؤرخ بها الاطفال للحب ، والمطر ، والياسمين .
ـ وماذا يعمل والدك ؟
ـ يزرع الملح في البحر .
ـ يا للتفاهة .
ـ من ان تتحول ارحام النساء الى محابر .
ـ هل تدخن ؟
ـ لا .
ـ هل تكتب الشعر ؟
ـ لا .
ـ هل تريد ان تبكي ؟
ـ لا .
ـ هل لديك رغبة ؟
ـ نعم .
ـ ما هي ؟
ـ ان أتحول في قاع البحر طينا حارا .
ـ ولماذا ؟
ـ لكي لا يزهر الملح الذي يزرعه والدي محرقا وجه « ساهي » .
ـ يا للرعب .
ـ ان تبقى أمي مومس .

* * *

٣ ـ موت الاشياء المستديرة

استندت على الجدار الرطب بتعب معروق ... ومن فمي كانت تفوح رائحة عرق حادة ... الاشياء تبدو امامي مهزوزة وغير واضحة، وكلما دققت النظر فيها جيدا أخذت اشكالا باهتة ومستديرة .

وعدت الى ذاتي أتسلق سلالها . حاولت ان اتذكر كتابا كنت قد قرأته من تاريخ بعيد او قريب ، ولكني لم أوفق .

أردت أن أغني ، ولكن الصوت مات في حلقي ، والاشياء تبدت بشكل مستدير اكثر .

تحركت من مكاني ، واندلق القيء من فمي حاد المرارة ، ليلوث يدي وقسما من ثيابي .

مر من جواري شاب وفتاة حلوة ، رأسها برتقالة ، وفمها حبة كرز حمراء .

قالت الفتاة : مسكين .

قلت : ساهي .

قال الشاب وهو يمضغ علكة : « وقح » .

اقتربت من اول محل بجواري ، كان مليئا بالكتب الكبيرة والصغيرة ، وبالصحف والمجلات . ابتسم في وجهي صاحب المحل بطريقة متكلفة ، حاولت ان ابتسم له ، فعلت المستحيل ، شوهت وجهي ، ولكني لم أجد رغبة في الابتسام .

ـ ماذا عندك ؟
ـ كتب كما ترى .
ـ اريد قصة .
ـ لديّ قصص كثيرة .
ـ اعطني واحدة .
ـ أي نوع تريد ، حب ، حرب ، مغامرات ، مؤامرات ؟
ـ قصة فارس مات في سبيل الوطن ، وهو يقاتل ، وظلّ في العراء بلا كفن .

ناولني الرجل كتابا صغيرا ملونا بالاحمر والاخضر ، فتحته ، تبعثرت الكلمات حولي ، في فمي ، في عيوني ، في قلبي .

ـ خذه ، واقرأ لي .
ـ أنت سكران .
ـ وانت غشاش .
ـ انه من النوع الذي طلبت .
ـ ولكنه لم يأت على ذكر « ساهي » .
ـ مجنون ، ومن يكون ساهي ؟ مجنون مثلك . أليس كذلك ؟

شعرت بالغضب يستولي عليّ ، أمسكت بالرجل من ياقته ، جذبته نحوي ، حملقت في وجهه بعداء وحشي ، صرخت فيه :

ـ ساهي ليس مجنونا ، ولكن المجنون هو أنت ، عندما تجلس طوال النهار تدخن وتبيع ورقا وكلمات ، وتخدع نفسك انك تقوم بعمل عظيم ، انت مجنون وتافه ، اما ساهي فهو بطل كبير ، اكبر من كتبك وكلماتها كلها .

بان الذعر في وجه الرجل ، رفعت يدي ، لطمته بقوة وبعنف ، هربت من عينيه حفنة دموع ... وسال الدم من فمه ... تذكرت الخيط الاحمر الذي سال من فم ساهي حين سقط ، وشعرت بالتخطي والسقوط .

احتضنت رأسي المتعب بين يديّ أعصره بعنف ، في حين راحت عشرات الايدي والارجل الفاضبة تنهال فوقي بلا رحمة .

سوريا ـ حلب

خليل جاسم الحميدي